

عالم السدود والقيود الآن — عندي وعند كل عابر بسبيله — هو ذلك البناء الملعزول في ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف في بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة، واسمه في سجلات الحكومة سجن مصر العمومي، واسمه الشائع على الألسنة «قره ميدان». أما يوم كنت آوي إليه ولا أرى غريه ولا أسمع بالدنيا إلا من وراء جدرانه فلم يكن بناءً معزولاً ولا كانت الناحية التي هو فيها ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف، كان هو العالم بأسره وبأرضه وسمائه، وكان العالم الخارجي جزءاً لاحقاً له مضافاً إليه، فالسجن الاستقرار فيه، آخر يتقابلان ويتناظران، فلو ظهرت في السجن صحيفة كبرية لكان لأخباره فيها مكان ولكانت أخبار العالم فيه كأخبار وإذا ارتقى بعضها إلى محل عقره وحجراته وخباباه. وهذه الصفحات هي خلاصة ما رأيته وأحسسته وفكرت فيه يوم كنت أنزل «عالم السدود والقيود» وأشعر به ذلك الشعور، وأنظر إلى العالم من ورائه ذلك النظر: لست ولست وجوه ذلك الإصلاح، ولست أعني بها أن تكون رحلة وإن كانت كالرحلة في كل شيء إل أنها مشاهدات في مكان واحد، ولا أن أستقصي كل ما رأيته وأحسسته وإن كنت أقول وإنه لا فرق بينه وبني الخلاصة إلا في التفصيل والتكرير، للقارئ بأن يستعرض عالم السجن كما استعرضته دون أن يقيم هناك تسعة شهور كما فإن كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو حقها من القراءة وشفاعتها عند القراءة، القارئ بني دفتي هذا الكتاب الصغرى وهو يتفكه ولا يضيق ذرعاً بالسدود والقيود، وحسبها ذلك من نجاح. عباس محمود العقاد فتحت الكوة الصغرى، ميدان: «امت راء وكل الشك في الخروج أما الدخول فما هو ذا يقني لا شك فيه، متى يكون وإلى أين يكون؟ إلى رجعة قريبة، من السجن وإليه؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى؟ أم إلى عالم الأموات؟ في تلك اللحظة عاهدت نفسي لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكون زيارتي الأولى إلى عالم الأموات، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك؛ ولم تقع مني هذه الرحلة بني الدار والسجن موقع املفاجأة؛ طويل ولو على سبيل الحجز الذي ينتهي بإفراج سريع، ولكني كنت لا أرى فرقاً بني أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبني مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء، ق لأنني كنت أخصاه الناس من السس وعلى توقعي الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علي بما يؤكد ذلك التوقع من وسمعت النبأ اليقني في هذا الأمر من صديقنا الملعفور له سينوت حنا بك، وقد لقيني مرة فاستوقفني وقال لي: «حذار يا أستاذ!» فقلت له باسم: «لا يغني الحذر مراجعة خاصة، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة، ثم يقدمونك إلى املاحكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة!» مصر في مؤتمر امجالس النيابية الذي عقد تلك السنة في العاصمة الإنجليزية، استخرجت جواز السفر السياسي، كنت أنوي زيارتها، سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية، ثم بدا لي أنني إذا سافرت فقد ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء، وربما كان منع عودتي أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها، وقلت: إن السجن ففتحت الباب فإذا ضابط في رتبة «اليوزباشي» على ما أذكر يبادرني بالسؤال: هل حضرتك فلان؟ قلت: نعم. ثم دخل وجلس، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور إلى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ووقعت على الدفتر — كما طلب الضابط — بأني تسلمت الورقة، وأخذت في إعداد الكتب التي سأقرأها في السجن، والأدوية التي أتعاطاها، هناك، لأنني كنت حتى إلى قره ميدان تلك الساعة أجهل «تقاليد السجون»، الخاصة أثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق املاحكمة. فظهر لي أنه لم يفهم، وأنه ينوي أن يقصد بها سجن الأجانب الذي كان أخي معتقلاً فيه. فقلت له: «بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه غدا بدار النيابة!» ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد املمستطاع، أنه ليس باليسري! وذهبت في املود املمحدود إلى دار النيابة، املاحمني يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى «الحيطة الصحية» الواجبة في هذه ومنها اختيار السجن الذي يوافقني أثناء الحبس «الاحتياطي» أكثر من سواه. وكان الأساتذة املاحمون لحسن الحظ من الخبريين بمزايا سجون القاهرة التي تردد عليها في سنوات الثورة السياسية معظم املمشغلني بالقانون والسياسة، خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم باملاحكمة وقدرتهم على النصح السديد للمتهمني واملوكلني، لأن الجو فيه أوفق لي من سجن الاستئناف، وقد كان. فذهبت مع الضابط والجند في سيارة خاصة إلى «قره ميدان» وتخطيت الباب فإذا هدوء غري مألوف؛ وتوجه بي الضابط نحو جديد، وما هي إلا لحظة حتى توافد اممولوظفون وكثر دخول السجانني ينظرون إلى القادم الذي سرى بينهم نبأ قدومه، فيقول لأحدهم: «اطمئن . ويقول له: «ألا تصدق؟ آه يا ابن الحلال. أو يقول لغريه: «تعال هنا . ثم يناديه بصوت يسمعه كل من في امملكان: «أفرح . نقلوك إلى أسوان، لا تقل لأحد يا ولدا!» فاستعدت في ذهني موقف هملت وحفاري القبور إذ يغنون وهم في نمار امملوت! جن لة الأولى في الللي لم يكن مكتب اممولوظفني إلا بمثابة «الأعراف» التي تفصل بني نعيم الحرية وجحيم الاعتقال، ولكنها «أعراف» تنتقل من النعيم إلى الجحيم كما تنتقل من الجحيم إلى النعيم، للإفراج كما يسمونه في لغة السجون! فاتجه الضابط إلى عنبر «ب» وفتح الباب الحديدي ودخلنا العنبر فكان أول ما صمت لا يلتفت أحدهم يمناً ولا يسرة، — لا بكلام — يقولون فيه:

«هيه هيه» . أما املغني فالذي أذكره من أنشودته الآن فقلت: فأل جميل وإيم الله! وللفال شأن كبري في «نفسيات» املسجونني كما سري القراء في بعض هذه الذكريات. مَن هؤلاء الجالسون القرفصاء؟ ليدله على أنواع العذاب ودرجات املعذبني، وَمَن هؤلاء املكبون على أربع؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات؟ وما بال أناس ولا يلبسون كأهل السجون؟ على أنني لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الذي ينوب في جحيمنا عن فرجيل! وكان محبوسا رهن املحاكمة في قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض وكان واقفاً عند باب حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر بقدمي! فلقيني مرحباً، وعلى الجالسني القرفصاء، وعلمت بعد ذلك بهنيهة أن هؤلاء الجالسني القرفصاء هم املحبوسون على ذمة التحقيق مَمَن نَأثروا البقاء بملابسهم العادية، وأنهم جلسوا تلك الساعة في انتظار الخروج «للطابور» الذي هو موعد الرياضة املصطلح عليه مساء كل يوم، وللمحبوسني شوق أما املكبون على أربع فهم أصحاب النوبة املنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى؛ ولا يحبسون في قال دليلي أو «فرجيلي» بعد الشرح املتقدم: «وإن هؤلاء املساكني يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبي يوسف عليه السلام. قال: «لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلي طعامه ويقصر أيامه. فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا املكان. لأن السجعة تقضي بذلك!» الدعاء، سفا على املكان الذي تركوه. وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامي برعاية املواعيد في تناول الوجبات. فأين الطعام؟ هل أحضره الطاهي أو نسي إحضاره وفهم غري ما تعبت بالأمس في إيفهامه إياه؟ فليس من املستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغري إلا بعد أن أسأل السجان، وبعد أن يسأل الضابط البواب، وبعد أن ينقضي في ولم يكن الذنب في هذه املرة على نكاء «الشيخ أحمد» كما توهمت لأول وهلة، قد أحضر الطعام بعد انصرافي من دار النيابة، أمراً بقبوله وانتظام حضوره، وحتى يتم ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش؛ لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش! العنبر وسقوفه، ثم فرغ السجان وصاحب النوبة املوكل بحجرتي من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها، فألقيت نظرة على الغطاء الذي سيغنيني عن غطائي فلم أطمئن إليه كثرياً، املفتوحة على رأسي يندفع منها الهواء طول ليل الخريف، فما العمل فيها؟ قال دليلي أو «فرجيلي» علي أفندي شاهني: «لا عليك من هذه النافذة! فسترى كيف نعالج خطبها». أرض الحجرة كما يصنع في حجرته هو، وضحك شاهني أفندي ضحك العلم واملعرفة وهو يقول لي: «أحمد الله على فهناك النافذة أربعة أضعاف النافذة هنا ولا أمل فضلا عن الظلام املطبق من الصباح إلى املساء. 15 عالم السدود والقيود وعاد املسجونون قبل ذلك أفواجا إلى الحجرات، وتعاليت بينهم ضجة كضجة السوق في يوم زحام، ثم توالى إغلاق الأبواب وإدارة املفاتيح ولن يبرح السجان دوره حتى يستوثق من مطابقة العدد املوجود للعدد املكتوب في سجله املعلق بها أفواه رجال ونساء، وشرع اثنان وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارئ على السجن في تلك الليلة فجعلوا للصحافة قسما من هذه املساجلات املحفوظة: الأولاد تنادي وراك وتقول: إيش معنى؟ - املؤيد! املؤيد . وهو يعني «املقيد». - فوق رأسك يا معلم علي. - إيش معنى؟ وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز! لأن بناء السجن واقع في حضن جبل املقطم. - إيش معنى؟ - كوكب!